فضل المدنية العربية
على المدنية الغربية

للدكتور فيليب حتى

أستاذ التاريخ بجامعة برنجستون بالولايات المتحدة

خلاصة موجزة لسبع محاضرات ألقاها الأستاذ باللغة الإنجليزية في جامعة سان باولو

٥ — نهوض الشعوب العربية الحديثة

العالم العربي قطعة متصلة تمتد من مراكش على الأتلنتيكي غرباً إلى العراق على خليج فارس شرقاً تجمعها اللغة والثقافة. وهي تتألف من وحدات أربع: إفريقية الشمالية، مصر، الجزيرة العربية، والهلال الخصيب

فأفريقيا الشمالية هي من حيث الجغرافية جزء من القارة الإفريقية، ومن حيث الثقافة والتاريخ جزء من الشرق الأدنى. وهي تتميز عن غيرها من الوحدات العربية بقربها من أوربا وبعدها عن قلب الإسلام وقلة الدم العربي في سكانها وكثرة المستعمرين الأوربيين المستوطنين فيها مما جعلها تسير في طريق لنفسها. وهذه الوحدة الإفريقية هي الأولى التي وقعت تحت النفوذ الأوربي السياسي وانفصلت عن جاراتها المسلمات. فالروح القومية العربية للآن لم تبلغ فيها حداً عالياً

وكانت الجزائر أول بقعة فيها احتلها الأوربيون وهم الفرنسيون وذلك عام ١٨٣٠. وتبعتها تونس التي احتلها الفرنسيون عام ١٨٨١. أما مراكش فتقاسمها الفرنسيون والإسبان في بداءة القرن العشرين؛ وبقيت طرابلس الغرب في حوزة الأتراك العثمانيين إلى عام ١٩١٢ عندما احتلها الطليان وأطلقوا عليها الاسم الروماني القديم ليبيا. وستكون ليبيا أول بلاد من هذه الوحدة تتحرر وتستقل بفضل قرار من الأمم المتحدة يقضي بذلك في أول كانون الثاني من عام ١٩٥٢

ومصر من حيث الجيولوجيا والجغرافيا جزء من إفريقية ومن حيث التاريخ والثقافة جزء من آسيا الغربية. فمصير مصر في كل أدوارها كان مرتبطاً بالبلدان في شرقيها لا في غربيها. وهي باعتبار سكانها (٢٠٠٠٠٠٠٠) وخصب أرضها وغنى أبنائها في مقدمة الدول العربية وتطمح إلى الزعامة بينها. وكان الإنكليز قد احتلوا مصر عام ١٨٨٢ ولكنها نالت استقلالها الناجز سنة ١٩٣٦

والجزيرة العربية تمتاز باحتوائها الأماكن المقدسة، مكة والمدينة. وهي بداعي تقاليدها الدينية وجغرافية أرضها تعيش عيشة منفردة انعزالية غير متأثرة بالعوامل الخارجية. لذلك انكسرت موجة التأثير الغربي الأوربي بما فيها من قومية وعلمانية ونزعات عصرية حديثة، على شواطئ الجزيرة دون أن تحدث فيها هياجاً ملحوظاً. وفي أوائل الثلاثين من هذا القرن اكتشف الأمريكيون في شمالها — في البلاد السعودية — معادن غنية للزيت. ولكن أثر الشركة الأمريكية يكاد يقتصر على بقعة محاذية للخليج الفارسي. وفيما سوى المملكة السعودية فهنالك مملكة اليمن المستقلة وهذه أيضاً متصفة بالمحافظة على القديم وعدم الإجابة لدواعي المدنية العصرية الحديثة

والهلال الخصيب يتألف من سوريا ولبنان وفلسطين والأردن والعراق. ولقد كانت سورية ولبنان إلى نهاية الحرب العالمية الثانية تحت الانتداب الفرنسي ولكنهما اليوم جمهوريتان مستقلتان. وكانت فلسطين وما وراء الأردن والعراق تحت الانتداب الإنكليزي. ومقاومة الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان نشط الروح القومية الوطنية؛ كما أن مقاومة الانتداب الإنكليزي في سائر بلدان الهلال الخصيب ومقاومة الصهيونية نشط الروح القومية فيها. ولقد كان تقدم العراق السياسي من الانتداب في عام ١٩١٨ إلى الملكية عام ١٩٢١ إلى الاستقلال والانضمام إلى جامعة الأمم عام ١٩٣٢ أمراً مذكوراً. والعراق اليوم مثل مصر حكومته ملكية دستورية

وعليه نرى أن الأمم العربية في غربي آسيا التي كانت حتى الحرب العالمية الأولى خاضعة للحكم العثماني قد فازت بين الحربين العالميتين باستقلالها وأخذت تسير في قافلة الأمم العصرية الديمقراطية الناهضة

٦ — أثر الغرب الحديث فى البلدان العربية

ظلت البلدان العربية رازحة تحت الحكم العثمانى أربعة قرون (١٥١٦ — ١٩١٨) كانت بمثابة القرون المظلمة فى تاريخها الطويل . عاش أبناء العربية فى هذه القرون محافظين على القديم مقيدين بالتقاليد لا يشعرون بشئ من التقدم الأوربى ولا يهتمون به . فكان الجمود أهم ميزة لمدنيتهم

وجاءت حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٧ بمثابة الهزة الأولى التى أيقظتهم من سباتهم . وكان نابليون قد جاء بمطبعة عربية من رومة فأقامها فى القاهرة وأنشأ معها أكاديمية للآداب والعلوم ومكتبة . فكانت هذه المطبعة أول مطبعة فى وادى النيل . وعقب نابليون فى حكم البلاد محمد على فأرسل البعثات العلمية والحربية إلى البلدان الأوربية ولاسيما فرنسا وإيطاليا، ولم يكتف بذلك بل استدعى من أوربا إلى بلاده ضباطاً وأساتذة وأطباء ومهندسين ، وأسس فى القاهرة مدرسة طبية وأخرى هندسية . وكان يحلم محمد على بتشييد إمبراطورية عربية يكون هو على رأسها

وأثر الغرب الذى بدأ فى مصر ما لبث أن امتد إلى سورية ولبنان وذلك فى عهد إبراهيم باشا ابن محمد على فى العقد الرابع من القرن التاسع عشر (١٨٣١ — ٤٠) فأخذت الرسالات التبشيرية من كاثوليكية وبروتستانية تشيد المدارس والكنائس . فالامريكيون أسسوا فى بيروت عام ١٨٣٤ المطبعة التى لم تزل تعمل باسمهم . وفى عام ١٨٦٦ بنوا الجامعة الأميركية . وعلى الأثر شيد اليسوعيون الفرنسيون مطبعتهم التى لم تزل فى مقدمة مطابع الشرق وجامعتهم المعروفة فى بيروت . وما لبث أبناء لبنان وسورية أن أقاموا المطابع والمدارس والمكاتب والجمعيات العلمية والأدبية على منوال المنشآت الغربية . وعقب عصر الترجمة من الإنكليزية والفرنسية عصر الإبداع والاستنباط فى الأدب والعلم والفن

وكان من نتائج النهضة الأدبية أن تولد الوعى القومى بين أبناء العربية وذلك بعد أن أدركوا بفضل هذه المدارس شيئاً من ماضيهم المجيد وتاريخهم المليء بالمفاخر . فاليقظة السياسية عقبت اليقظة الأدبية . وتولدت فى أفكار القوم الروح القومية بما فيها من الرغبة فى التخلص من الحكم التركى وتقرير المصير والاستقلال السياسى

وكان رواد هذه النهضة معظمهم من أبناء لبنان المسيحيين ومن خريجى المدارس الأميركية الذين وجدوا فى مصر مجالا أوسع للعمل

فأساس النهضة العربية الحديثة إذن أدبى علمى . وعلى ذلك الأساس تشيدت دعائم الوطنية والقومية العربية . وكل ذلك بتأثير الموجة الغربية التى نقلت إلى الشرق أفكاراً علمانية واقتصادية واجتماعية وسياسية جديدة . وكان من أهم الأفكار السياسية فكرة الديمقراطية وتقرير المصير

ولم تكن الروح القومية العربية فى بادئ أمرها من النوع الإقليمى بل من النوع الشامل . كان أساسها اللغة والثقافة لا الدين ، وكانت ترمى إلى جمع المسلم والمسيحى المصرى والسورى واللبنانى على صعيد واحد هو الصعيد الأدبى

٧ — ثورة القومية والفوز والاستقلال

كانت البلدان العربية الآسيوية حتى الحرب العالمية الأولى وحدة مفردة تخضع للحكم العثمانى . على أن تلك الحرب كان من نتائجها تفكك عرى الإمبراطورية العثمانية وسلخ البلدان العربية وتجزئتها إلى وحدات متعددة مما آل إلى تجزؤ القومية العربية البدائية

فمصر بعد أن احتلها الإنكليز عام ١٨٨٢ صار همها الأول التخلص من ذلك الاحتلال . فأصبح لها مشكل خاص بها . وبفضل ذلك أخذت القومية فيها تصطبغ بصبغة محلية موضعية وانفصلت عن القومية العربية الشاملة . يومئذ اكتشف المصرى أنه مصرى واتخذ شعاره « مصر المصريين » . وفى عام ١٩٣١ نالت مصر استقلالها بعد أن أمضت مع إنكلترا معاهدة العشرين سنة تخول الإنكليز حق استخدام الرافئ وطرق المواصلات المصرية فى أيام الحرب وإبقاء جامية بريطانية على ترعة السويس

كذلك سورية ولبنان بفضل مقاومتهما للانتداب الفرنسى الذى أصبح مشكلهما الخاص بهما افترقتا عن بقية البلدان

العربية وتولدت فيهما روح إقليمية خاصة . وكان أبناء سورية ولبنان يشكون من عدم اعتبار فرنسا قوميتهم ومن فرض اللغة الفرنسية عليهم ومن تقسيم البلاد السورية إلى ولايات والسماح لتركيا باحتلال سنجق هاتاى . فمقاومة الانتداب جاءت بمثابة رد من يشهد عليه القوميون سيوف وطنيتهم إلى أن أعلن لبنان جمهورية مستقلة وكذلك سورية وذلك عام ١٩٤٥ . وكان لبنان في الكثير من أحقابه ولا سيما في العهد العثماني يتمتع بمقدار مختلف من الحكم الذاتي

أما مشكلة فلسطين التي وقعت تحت الانتداب الإنكليزي فما زاد عرقلته حشر الصهيونية فيه . وهي الحركة الأجنبية التي اعتبرها العرب بكليتهم حركة اعتداء وظلم . فالجهاد ضد بريطانيا والصهيونية نتج عنه روح فلسطينية محلية . وبعد أن ظهرت إسرائيل (١٩٤٨) ضم الملك عبد الله ما تبقى من فلسطين إلى مملكته وبذلك زالت فلسطين من الوجود

وكان الملك عبد الله قد بدأ حياته السياسية الهامة أميراً على ما وراء الأردن وذلك عام ١٩٢٢ بعد أن طرد الفرنسيون أخاه فيصل من عرش سورية المحدث

بيد أن سياسة الانتداب الإنكليزي في العراق جاءت من الطراز المستتير المتساهل ، ففي عام ١٩٢١ بعد أن فشل الأمير فيصل في محاولته الملكية في دمشق نصبه الانكليز ملكا على العراق . وفي عام ١٩٣٠ تخلى الانتداب البريطاني عن كل حقوقه في هذه البلاد واعترف بالعراق بلاداً مستقلة . فالعراق سبقت شقيقتها سورية في ميدان التطور السياسي مع أن سورية كانت تسبقها في التقدم العمراني والثقافي

والمملكة العربية السعودية هي من صنع ملكها الحالي عبد العزيز بن سعود الذي شيد لنفسه مملكة جديدة منتشرة من الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر ومنطوية على معظم الجزيرة العربية الشمالية والوسطى . وهو الذي طرد الملك حسين والد عبد الله وفيصل من الحجاز . وجاء اكتشاف الزيت بثروة فائقة في صحارى هاته البلاد حادثاً تاريخيا هاما إذ بواسطته فتحت بعض أطراف البلاد أبوابها لقبول العوامل العمرانية الغربية الحديثة . ولشركة الزيت الأميركية التي نالت امتياز الاستثمار عام ١٩٣٣ الفضل في جعل دخل المملكة العربية السعودية أعظم دخل لبلاد عربية في العالم

وفيما سوى هذه المملكة فهنالك مملكة اليمن في الجنوب التي لا تزال حكومتها ثيوقراطية وأبناؤها بعيدون عن المؤثرات الخارجية العصرية من علمية وفنية وعلمانية . فاليمن لا تزال محافظة على القديم بعيدة عن مجاري العمران التقدمي الحديث

إن كانت الحرب العالمية الأولى نتج عنها تقسيم البلدان العربية وتجزئتها وتوليد قوميات وطنية فيها فالحرب الثانية جاءت نتائجها عكس ذلك . شعر أبناء العربية أن مصلحتهم الاقتصادية والسياسية تقضي بجمع كلمتهم وتوحيد أهدافهم فالوا إلى التعاضد والتعاون والوقوف اليد في وجه العدو الخارجي . وكان من نتيجة ذلك تأليف جامعة الدول العربية وقوامها مصر وسورية ولبنان والأردن والعراق والبلاد العربية السعودية واليمن . وللجامعة دستور يكفل لكل دولة فيها الاستقلال التام ويقضي بحل المشاكل بين الأعضاء إذا كان ثمة مشاكل بطرق سلمية ويفرض التضامن على دفع الاعتداء من الخارج . وللجامعة لجنة سياسية وثانية اقتصادية وثالثة ثقافية . ومع رغبة الجزائر ومراكش وتونس في الانضمام إلى عضويتها فالدستور لا يجيز ذلك إلى أن تحقق كل واحدة من هذه البلدان استقلالها الداخلي التام

ومع أن الجامعة نالها شيء من الكسوف بداعي المعضلة الصهيونية التي تولدت منها إسرائيل فهي الآن تحدد حياتها وتسعى للعمل الصالح الشامل . وعلى نسبة ازدياد شأن هذه المنظمة في الشؤون الدولية تزداد قيمة الأعضاء فيها

فيليب حتي